المحاضرة الثالثة (نزول القرآن)

القرآن الكريم نعمة السماء إلى الأرض، وحلقة الوصل بين العباد وخالقهم، نزل به الروح الأمين، على قلب رسوله الكريم بالحق ليكون للعالمين نذيراً، وهادياً ونصيراً، قال تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا)(لنساء: ١٧٤). وقد تكرر في القرآن القول بأنه منزلٌ من عند الله. وجاءت مادة (نزل) في اللغة بتصريفات كثيرة : نزل ، وأنزل ، وتنزل ، وتنزيل...وغير ذلك كما جاءت هذه المادة بكثرة في القرآن الكريم بتصريفاتها المختلفة في (٢٩٥) آية، واستخدام القرآن لتعابير مثل <نزول> و<تنزيل> إنما هو لأجل التأكيد على كون القرآن وحياً منزلاً من عند الله لئلا يظنَّ أحدٌ أنه من وضع البشر ،وانه لسان النبي الأكرم'. ذكر ابن فارس (ت٣٩٥هـ) في معجم مقاييس اللغة المعنى الحقيقي لمادة «نزل»، فقال: «كلمة تدل على هبوط الشيء ووقوعه»، وعليه فنزول الأمر يدلّ على هبوطه من محل عالٍ إلى محل أسفل؛ وبالتالي فإن حقيقة القرآن الكريم وأصله ـ وهو كلام الله تعالى ـ محفوظ في أم الكتاب عند الله، وهو مكان يتصف بالسمو والرفعة: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤].

والقرآن الكريم هو الدستور الإلهيّ الذي يحفظ الإسلام بين صفحاته من العبث والتزييف، وهو المعجزة الكُبرى في حياة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- والتي لا تزال خالدةً إلى يومنا الحالي، وستبقى كذلك إلى قيام الساعة، فبكلمات القرآن الكريم بدأ الإسلام وبعثته -صلى الله عليه وآله وسلم- عندما نزل عليه جبريل -عليه السلام- في غار حِراء لأوّل مرةٍ بصورته الحقيقية، وهو جالسٌ في الغار ليخبره ببعثته وبأنّه رسولٌ إلى البشريّة بأن تلا عليه أوّل خمس آياتٍ من سورة العلق، فكانت هذه المرّة الأولى التي ينزل فيها القرآن الكريم عليه- صلى الله عليه وآله وسلم-.

وكيفية نزول القرآن على خير خلق الله محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - من الأمور التي تستوقف المؤمن وتلح عليه بالسؤال، كيف نزل القرآن الكريم؟ وما هي المراحل التي استغرقها نزوله؟ وهل نزل جملة واحدة على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أم نزل على فترات متباعدة؟ في هذا المحاضرة نحاول أن نتلمس الإجابة عما أثرناه من أسئلة، فنقول:

الذي عليه أهل العلم أن القرآن الكريم نزل من عند الله سبحانه وتعالى على قلب رسوله على فترات متقطعة، ولم ينزل عليه جملة واحدة. وقد كان كفار قريش يريدون نزوله جملة واحدة، كما أخبر عنهم الله تعالى، فقال: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) (الفرقان:٣٢) إلا أن الله سبحانه -وهو أعلم بما هو أوفق لرسالته وأصلح لعباده- أراد أن ينـزل القرآن مفرقاً؛ وذلك لحِكَم متعددة، منها ما ذكره سبحانه في الآية نفسها، فقال: (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا)(الفرقان:٣٢)، فتثبيت قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان حكمة بالغة من الحِكَم التي نزل لأجلها القرآن مفرقاً.

اعتبر بعض العلماء أن للقرآن مراحل من النزول مستفادة من نفس الآيات، وهي التالية:

١ـ الثبوت في اللوح المحفوظ: ورد في سورة البروج قولـه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج:٢١ـ٢٢].ولم يوضح القرآن ما هو المراد من اللوح المحفوظ، ولكن

المستفاد من الروايات انه لوح في السماء فيه ما كان وما سيكون، ولا يطلع عليه إلا الملائكة، وإنما سُمي هذا اللوح بالمحفوظ لأنه لا تناله يدُ الشياطين ولا الزيادة ولا النقيصة، وقد كتب الله فيه بالقلم مصير كلّ شيء. وطبقاً لما تفيده هذه الآية فإن حقائق القرآن ومعارفه مدونة في هذا اللوح، وتنزلت منه إلى العوالم اللاحقة. وورد في آية أُخرى أن حقيقة القرآن نزلت من أم الكتاب:﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٢-٤].ويرى المفسرون أن اللوح المحفوظ هو أم الكتاب. ويحتمل أن يكون المراد من «الكتاب المكنون» في سورة الواقعة هو أم الكتاب، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الواقعة:٧٧-٨٠].

٢- النزول إلى عالم الملائكة: وصف القرآن الكريم نفسه في سورة عبس بقولـه: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاء ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١١ - ١٦]. ويرى غالب المفسرين أن المراد من السفرة في هذه الآية هم الملائكة. ولعل المراد من الروايات التي وردت بأن القرآن نزل إلى السماء في ليلة القدر هو نزوله إلى عالم الملائكة.

٣- النزول على قلب النبي الأكرم: أخبرنا القرآن بأن جبرائيل، وهو من الملائكة العظام، قد نزل بالقرآن على قلب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -. وقد وصفه الله تعالى في الآية بـ «الروح الأمين»، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ *بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٥].

وزمان نزول القرآن - وطبق ما أفادته الآيات القرآنية - هو ليلة القدر من شهر رمضان، والمشهور أن الآيات الأولى من القرآن الكريم نزلت عند بعثة النبي الأكرم'، كما أن المشهور أن المبعث النبوي وقع في شهر رجب. ومن ملاحظة هذه الأمرين نشأ السؤال: كيف ينسجم نزول القرآن في شهر رمضان مع أن بعثة النبي' المقارنة لنزول القرآن كانت في شهر رجب؟

إن المراد من إنزاله في شهر رمضان وفي ليلة ابتداء القدر منه ابتداء إنزاله في ذلك الوقت ثم أستمر نزوله بعد ذلك على الرسول صلى لله عليه وآله بالتدريج ووفقاً للمناسبات والمقتضيات. قال صاحب المنار (وأما معنى إنزال القرآن في رمضان مع أن المعروف باليقين أن القرآن نزل منجماً متفرقاً في مدة البعثة كلها فهو أن ابتداء نزوله كان في رمضان وذلك في ليلة منه سميت ليلة القدر - أي الشرف والليلة المباركة - كما في آيات أخرى وهذا المعنى ظاهر لا إشكال فيه).وقال الشيخ المفيد: (وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر أنه نزل جملة منه في ليلة القدر ثم تلاه ما نزل منه إلى وفاة النبي صلى الله عليه وآله).

ويبدو أن هذا الرأي هو الذي استقطب أنظار الأغلبية من محققي علوم القرآن والتفسير نظراً إلى كونه أقرب الآراء إلى طبيعة الأمور وأوفقها مع القرائن وظواهر النصوص القرآنية، فإن القرآن يطلق على القرآن كله كما يطلق على جزء منه، ولذلك كان للقليل من القرآن نفس الحرمة والشرف الثابتين للكثير منه، فنزول جزءٍ من القرآن - أستهل به الوحي الإلهي في ليلة القدر من شهر رمضان - يصدق معه نزول القرآن في ليلة القدر وفي شهر رمضان.

ولا بد أن نضيف على هذا الرأي إضافة توضيحية هي أن المقصود من كون ابتداء النزول القرآني في ليلة القدر من شهر رمضان ليس ابتداء الوحي على النبي صلى الله عليه وآله.. فإن افتتاح الوحي المحمدي كان لسبع وعشرين خلون من رجب على الرأي المشهور وكانت الآيات التي شعّت من نافذة الوحي على قلب الرسول صلى الله عليه وآله لأول مرة هي (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)، ثم أنقطع الوحي عنه لمدة طويلة ثم ابتدأه الوحي من جديد في ليلة القدر من شهر رمضان - وهذا الذي تشير إليه الآية المباركة - واستمر الوحي عليه صلى الله عليه وآله حتى وفاته.. وبما ان هذا كان بداية استمرار النزول القرآني فقد صحّ اعتباره بداية لنزول القرآن.

المحاضرة الرابعة (الوحي: معناه وحقيقته)

في محاضرة سابقة عرّفنا القرآن بأنه كلام الله المعجز المنزّل وحياً على النبي محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) فالمتكلم هو الله، والناقل هو الوحي، والمتلقي هو رسول رب العالمين، وأنّ جبريل عليه السلام هو الوحي الذي نزل بألفاظ القرآن المعجزة من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس. والوحي في اللغة من أَوحَى ، و وَحَى ، وهو الإعلام في سرعة وخفاء. ويأتي بمعان عدة منها:

١- الإشارة كقوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (مريم ١١) أي أشار إليهم ولم يتكلم.

٢- الإلهام الفطري: كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ...﴾(القصص ٧) أي ألقينا في خاطرها وألهمناها.

٣- الوسوسة: كما في قوله تعالى:﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ (الأنعام ١٢١) .

٤- الإلهام الغريزي: كما في قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (النحل ٦٨) .

٥- الأمر كما في(سورة الأنفال ١٢):﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وأمّا تعريف الوحي اصطلاحا : فهو إعلام الله تعالى من اصطفاه من عباده بحكم شرعي ونحوه . أو هو عرفان يجده الشخص الموحى إليه في نفسه مع اليقين أنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة .

وللوحي أنواع : قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الشورى ٥١).فهذه الآية الكريمة بينت أنواع الوحي الذي يكلم الله به أنبياءه عليهم الصلاة والسلام.

النوع الأول: هو ما يلقيه الله ويقذفه في قلب النبي أو الرسول، فيوقن النبي أو الرسول أن هذا من الله تبارك وتعالى ومنه ما جاء عن رسول الله ﷺ "إن روح القدس نفث في روحي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب ".

النوع الثاني: أن يسمع النبي أو الرسول كلام الله من غير أن يدرك أو يرى مصدر هذا الصوت وذلك مثل تكليم الله موسى عليه السلام وهو المشار إليه بقوله ﴿أو من وراء حجاب﴾.

النوع الثالث: هو ما يكون بوساطة الملك جبريل عليه السلام وهو المشار إليه بالآية ﴿ أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ .وهو أكثر أنواع الوحي وقوعا وبه نزل القرآن على النبي ،قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ .

ومن أنواع الوحي الرؤيا الصادقة في النوم للأنبياء والمرسلين قال الله تعالى في قصة إبراهيم ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾.(الصافات ١٠٢)

ولقد أثار أعداء هذا الدين شبهات يشككون فيها في أن القرآن الكريم وحي من عند الله أوحاه الله إليه بوساطة الروح الأمين ومن هذه الشبهات :

١- أن محمدا قد تعلم القرآن الكريم من غيره، ولكن ممن تعلم هذا الكتاب ثمة احتمالات :

أ- أن يكون مصدر القرآن مجتمعه الذي عاش فيه .

ب- أن يكون اكتسبه من اليهود والنصارى و أفاده من التوراة والإنجيل.

ج- أن يكون تعلمه أثناء رحلاته التي كان يقوم بها للتجارة.

وفي الرد على هذه الاحتمالات نقول: إن الزعم أن ما جاء به النبي منتزعا من المجتمع الذي كان يعيش فيه مردود لأن القرآن الكريم في كثير من آياته ينص على هذا المجتمع وأهله ما هم فيه من الباطل والفساد ويذكر مثالبه كالشرك، وعبادة الأوثان ووأد البنات، وقتل النفس وأن المعاصرين للعرب كاليهود والفرس والروم كانوا يصفون العرب بالأميين .ولم يكن ذلك المجتمع يحفل بالقضايا الدينية والمسائل العقدية بل كان مجتمعا أميا قبليا فهل يعقل أن يكون مصدر القرآن ذلك المجتمع بأوصافه المذكورة .

وأما الزعم بأنه مأخوذ من اليهود والنصارى فمردود أيضا لأنه لم يثبت أن الرسول كان يتردد على اليهود وكانت كل تحركاته ورحلاته بين الشام واليمن مع قومه وقد قضى فترة ما قبل الوحي يرعى الغنم، وكان قبل الوحي يقضي معظم أوقاته في غار حراء يتعبد ، والتوراة والإنجيل لم يترجما إلى العربية إلا بعد قرون من بعثة الرسول ﷺ .وما جاء في القرآن الكريم يخالف كثيرا مما جاء في هذين الكتابين في مسائل الخلق والعقيدة والقصص والأخبار.

وأما الاحتمال أن يكون الرسول قد اكتسب القرآن من رحلاته إلى الشام واليمن فمردود لأنه لم يثبت أثناء تلك الرحلات قد اختلى بالأحبار والرهبان وعلماء اليهود والنصارى بل كان تحت أنظار قومه، وكان الذين يلاقيهم بين عابد وثني أو نصراني معرفتهم بالدين محدودة وساذجة .

٢- الزعم بأن يكون القرآن من عنده ، وهذا الادعاء باطل ودليل بطلانه إقرار الرسول نفسه أن هذا القرآن ليس من عنده ، بل هو من عند الله ، وأي عاقل يتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات ، وينسب ما يأتي به لغيره؟؟ ولو قال أحد أنه نسب القرآن إلى الوحي الإلهي لأن في ذلك ما يعينه على دعوة الناس ليستجيبوا له ويطيعوه، نقول حينئذ إن هذا دليل فاسد، وذلك لأن النبي قد صدر عنه كلام نسبه إلى نفسه، وجاء بكلام نسبه إلى ربه وكلاهما استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء، وكانت طاعته من طاعة الله ومعصيته من معصية الله، ثم إن هذا القول مبني على افتراض باطل وهو أن يكون النبي يريد الوصول إلى غايته عن طريق التمويه والكذب، ذلك أن سيرة النبي ﷺ- تشهد أنه كان أبعد الناس عن الكذب .